التقرير اليومي

2007/9/21

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

فهم دوافع إيران في العراق: حسابات كلفة الدعم الخارجي (2/2)

بقلم ريان كار؛ المدرسة البحرية للدراسات العليا، الجيش الأمريكي ؛ آب 2007

دور إيران في العراق

بالتحول نحو قضية اليوم، فإننا غالباً ما نسمع حديثاً عن العالقات المتوازية بين العراق وفييتنام. وفي حين أنّ بعض المقارنات هي خارج الحد بشكل واسع، فقد أثبتت أخرى أنها أكثر دلالة. وهذا هو الحال مع دور وأهمية الدول الخارجية الداعمة. فكما كان الحال في فييتنام، أثبت الدعم الخارجي للمتمردين العراقيين، على المستوى الإستراتيجي تحديداً، بأنه دعم قاتل.

وهناك خلاف حول ماهية الدعم، إذا كان هناك من دور تلعبه إيران داخل العراق. فبسبب الذريعة التي تذرعت بها الولايات المتّحدة ومضت على أساسها الى الحرب– التهديد الذي شكلته أسلحة الدمار الشامل العراقية وعلاقات صدام مع القاعدة– فبما يتعلق بالميدان الإستخباري فقد تضررت مصداقية إدارة بوش بشكل تام. ويكفي القول بأنه في حين انّ الإدراك الكامل لدور إيران في عراق ما بعد صدام لن يكون مفهوماً لفترة لا بأس بها من الوقت، فإنّ المزاعم حول تورطها القوي والراسخ تبقى محتملة بشدة.

أما إحدى أشد الجدالات صخباً وعنفاً الناتجة عن هواجس الولايات المتّحدة فتتعلق بتزويد إيران عناصر التمرد العراقي بمتفجرات متطورة ومساعدات تكنولوجية مشابهة. إذ أشارت "مجموعة دراسات العراق" أيضاً في إستنتاجاتها الى أنّ هناك تقارير أيضاً تذكر بأنّ إيران زودت مجموعات– بمن فيهم المتمردين السنة العرب– بمتفجرات متطورة لمهاجمة القوات الأميركية. لقد ساهمت أسلحة كهذه بإكتساب المتمردون الكفاءة والمهارة بحيث أصبحوا قادرين من خلالها على مهاجمة القوات الأميركية. فبالنسبة لشهر أيار 2007، كانت هذه النماذج من الأسلحة مسؤولة عن 38,6 بالمئة من مجموع عدد الضحايا الأميركيين. ويعرض التقرير أيضاً الى أنّ أسلحة أخرى ذات تقنية عالية، بما فيها سلاح المورتر وبنادق القناصة، المشتراة من إيران، قد إنتهت بأيدي المتمردين العراقيين.

وأسرع المسؤولون الإستخباريون للإشارة بأنّ إيران قد تراجعت، عن وعي، عن تزويد الميليشيات الشيعية بأسلحة أكثر تعقيداً، مثل صواريخ أرض – جو التي كان حزب الله قد إستخدمها ضد إسرائيل، وذلك حتى لا تعطي إدارة بوش أية أرضية أوحجة لرد عسكري مباشر.

إيران وحسابات الكلفة

بعد 9/11، واجهت الولايات المتّحدة قراراً ضخماً وصاعقاً– إلى أين نمضي من هنا. فالزمن هو فقط من سيخبرنا إن كانت مقاربة إدارة بوش قد جعلتنا بأمان أكبر– فحتى تاريخه، لا تعتبر العوائد الأولى لهذه المقاربة واضحة بأي شكل من الأشكال. لكن ما هو واضح هو أنه بإتخاذنا مقاربة أكثر عسكرية ضد دولة مثل العراق– وضعنا عدداً من الدول الأخرى، بما فيها إيران، في دائرة الإهتمام.

فبعد غزو أفغانستان في العام 2001، ومن ثم العراق في العام 2003، حصن الجيش الأميركي نفسه بقوة على حدود إيران الشرقية والغربية. وفي حين أنّ التوترات بين الولايات المتّحدة وإيران ظلت متفجرة منذ الثورة الإيرانية عام 1979 وأزمة رهائن السفارة الأميركية التي أعقبتها، فإنّ كلام وخطابات إدارات بوش المستفزة بشكل متزايد (مثل ضم إيران الى "محور الشر")، لم تؤدِ سوى الى تصعيد إمكانية حصول أعمال عدائية مستقبلية تلوح بالأفق. أضف الى هذه المعادلة نزاع إيران النووي المستمر مع الغرب. فمن وجهة نظرهم (الإيرانيين)، فإنّ إمكانية حصول هجوم وشيك من قِبَل الولايات المتّحدة (أو حليف ما مثل إسرائيل) تبدو، على الأرجح، إمكانية واقعية جداً وبالكامل. ولذلك، وبسبب موقعها المعرض للإستهداف، لم يكن مفاجئاً أن نكتشف، تماماً بعد غزو الولايات المتّحدة للعراق عام 2003، بأنّ إيران حاولت الدخول مع الولايات المتّحدة بمحادثات مباشرة لأول مرة منذ 20 عاماً.

وكما كانت قد ذكرت أولاً مجلة نيوزويك في العام 2007، فإن سفير سويسرا الى إيران في ذلك الحين، تيم غولدي مان، كان قد أرسل فاكساً الى وزارة الخارجية الأميركية إحتوى على وثيقة إيرانية من صفحة واحدة تحمل مصطلح "خارطة طريق" لمناقشات شاملة مع الولايات المتّحدة حول عدد من القضايا البارزة. وقد أُرفقت وثيقة الصفحة الواحدة برسالة صرح فيها السفير غولدي مان بأنه "حصل على إنطباع واضح بأنّ هناك إرادة قوية لدى النظام الإيراني لمعالجة المشكلة مع الولايات المتّحدة الآن ومحاولة القيام بذلك مع هذه المبادرة". وبحسب رسالة غولدي مان، فقد نال العرض موافقة القائد الأعلى الديني في إيران، آية الله خامنئي، ورئيس إيران في ذلك الحين، محمد خاتمي، ووزير خارجيته الأوحد كمال خرازي. ويبدو ظاهراً، بشكل ثابت، بأنّ إيران كانت مستعدة للقيام بتنازلات في عملية تبادل للحصول على ضمانات أمنية في الخارج. أما الولايات المتّحدة، فلم ترد مطلقاً على هذا الفاكس.

وفي العام 2007، قال نائب وزير الخارجية الأسبق ريتشارد آرميتاج، عن ذلك البلاغ الرسمي: "لم نتمكن من تحديد ما الذي كان عرضاً إيرانياً وما الذي كان عرضاً للسفير السويسري"، مضيفاً بأنّ إنطباعه في ذلك الحين كان بأنّ الإيرانيين "كانوا يحاولون طرح أمور كثيرة على الطاولة". وقد ذكر أيضاً مايكل هيرش، من صحيفة نيوزويك، بأنّ لاري ويلكرسون، رئيس فريق عمل وزير الخارجية الأسبق كولن باول، في رسالة إليكترونية (e-mail) بأنّ العرض الإيراني كان يمكن أن يكون البداية "لمحادثات ذات مغزى" بين الولايات المتّحدة وإيران. على كل حال، فقد أضاف ويلكرسون قائلاً بأنّ عرضاً كهذا "لم يشكل بداية" بسبب معارضة نائب الرئيس ديك تشيني.

تشير محاولة إيران عام 2003 لفتح حوار مع الولايات المتّحدة، في كل الإحتمالات، الى حقيقة أنهم (الإيرانيين) كانوا قلقين، على الأرجح، من كونهم الرقم التالي في "محور الشر" الذي سيعاني من ضربة إستباقية، تحديداً بعدما قامت الولايات المتّحدة، بداية، بالتقدم بقوة مخترقة الجيش العراقي بسهولة. وفي نفس الوقت، كانت إدارة بوش تنجح في عملها عقب عرض "الصدمة والرهبة" الذي قدمته، ولم تكن

مهتمة بأي حوار. ولا يفاجئنا أنه لم يكن هناك من تقارير حول إيران بشأن تقديمها الدعم للتمرد العراقي، عندما كانت الولايات المتّحدة تمضي أواخر 2003 وهي تتحرك لتوحيد سيطرتها وسلطتها على العراق.

بالواقع، كانت إيران قد وافقت في ذلك الحين حتى على تعليق عناصر برنامجها النووي. ويمكن للمرء الإفتراض أن إيران، في هذه المرحلة، كانت خائفة من لعب أي دور في إثارة الإضطراب في العراق بسبب خوفها من إستخدام إدارة بوش أي ذريعة تريدها لمواجهة طهران عسكرياً. لكن في الوقت الذي بدأ فيه الوضع الأمني في العراق بالتدهور بسرعة، يبدو أن إيران شعرت، على الأرجح، بالجرأة أكثر فأكثر. وبحلول عامي 2004– 2005، كان الإيرانيون مستعدون للبدء بتحمل المخاطر للمساعدة في إستمرار وثبات التمرد الذي كان يشغل فكر الولايات المتّحدة.

وعلى مدى العامين الأخيرين، وفي الوقت الذي إستمر فيه توازن القوى في العراق بالتحول، تزايدت التقارير المتعلقة بدور إيران في العراق بشكل ثابت ومستمر. ويبدو أنّ النجاح الظاهر للتمرد العراقي قد أعطى إيران بعض المجال للتنفس. وإذا كان بإمكان المرء أن يفترض بأنّ إيران تلعب دوراً هاماً في التمرد العراقي، فإنّ أنشطتهم مدفوعة، على الأرجح، بدافع الرغبة الجامحة لتعزيز أمنهم الخاص إزاء الولايات المتّحدة. وفي العام 2005، قال عباس ميلاني، مدير برنامج الدراسات الإيرانية في جامعة ستانفورد، بأنّ ما هو واضح أكثر فأكثر هو أنّ طهران تريد رؤية الجنود الأميركيين مقيدين في العراق ليضمنوا بذلك بأن تكون الحرب مستقبلاً مع إيران، "أمر متعذر ببساطة".

وخلال هذا الوقت، كانت إدارة بوش متأرجحة، بشكل ظاهر، بين رفع خطابها الهجومي وبين تقديم مقاربة أكثر تصالحية تجاه إيران. فعلى سبيل المثال، وفي آذار 2007، بدأت البحرية الأميركية بعملية تدريب كبرى في الخليج الفارسي بهدف بعث رسالة الى الإيرانيين، في حين تضمن "للجماهير الإقليميين" قدرات وتصميم القوات الأميركية. أما الجدول الزمني للتدريب، والذي كان مبرمجاً سابقاً، فقد تم تسريعه في جزء منه كرد على رفض إيران وقف برنامجها النووي. وبعد شهرين من ذلك، وخلال زيارة له الى المنطقة، أدلى نائب الرئيس ديك تشيني بخطاب على متن السفينة VSS John C. Stennis محذراً بأنّ "الولايات المتّحدة مستعدة لإستخدام قوتها البحرية لمنع إيران من قطع طرق النفط أو الحصول على أسلحة نووية والهيمنة على هذه المنطقة".

وقد أعقبت هذه الرسالة المتحدّية، وبشكل يثير الفضول، نداءات لحوار متزايد من الولايات المتّحدة من جانب وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس ليكون ذلك المثال الأول لمفاوضات ديبلوماسية مباشرة بين الولايات المتّحدة وإيران منذ العام 1979. وبرغم بعض المؤشرات الأخيرة التي قد تدل على إستعداد للحوار مع إيران على مستوى ما، فإنّ سجل مسار الولايات المتّحدة القديم، المقترن مع جدل معلق حول "مضاعفة" رهاناتها بخصوص إعادة صنع العراق والشرق الأوسط الكبير، قد أبقى إيران، وهذا مفهوم، مفعمة بالشك حول ما يمكن أن يعنيه عراق مستقر بالنسبة لمستقبلها الخاص بها.

التعقيدات السياسية

من الواضح بأنّ إيران لا تتطلع إلى مباغتة الجيش الأميركي. فحقيقة أنّ إيران لم تلتزم تزويد التمرد العراقي بنماذج معينة من الدعم يحكم هذه النقطة. فإيران مستعدة لتحمل بعض الأكلاف، بما في ذلك إمكانية إحتمال قيام الولايات المتّحدة بإتخاذ عمل مباشر ما ضدها، وذلك لأجل صنع توازن ضد نفوذ أميركا في المنطقة. إنّ إيران مهتمة، بشكل رئيس، بدعم التمرد العراقي ليساعدها ذلك بتعزيز أمنها الخاص، و هي كانت دعمت الفئات السنية وكذلك الشيعة في نهاية المطاف.

لماذا يبدو وكأن الولايات المتّحدة تجاهلت تقدير هذا الدافع بخصوص بإيران؟

فكما كان الحال في فييتنام، ولأجل تبرير دعمها المستمر، عملت الولايات المتحدة على بناء إجماع عام حول الحرب، على أنه نضال بين الخير والشر. وفي حين أنّ هذا يساعد على توليد الدعم في الداخل، فإنه يغذي أيضاً المفاهيمية السيكولوجية للتمرد بصفته إلتزام إيديولوجي، عدواني وأساسي. وفي حين أنّ هذه الدوافع قد تكون بالتأكيد صحيحة بالنسبة لعدد من المتمردين العراقيين، فإنها لا تعكس دوافع إيران. ومع ذلك، وبواسطة دمج الإثنين، حلت الولايات المتّحدة نفسها من واجب لعب أي دور في إستفزاز رد متوازن من قِبَل إيران.

لا يجب على الولايات المتّحدة الإعتماد على مقولة "نحن ضدهم"، في حين ترفض درس الكيفية التي ينظر بها الى أنشطتنا في الخارج. إذ من الملزم أن يقوم صناع السياسة الأميركيين، من الإدارة وصولاً الى الجيش، بتطوير نوع من الوعي الذاتي، والبدء بتقدير الكيفية التي تؤدي بها أعمالنا الى إستفزاز ردات الفعل. وهذا لا يعني الإقتراح بأنّ على الولايات المتّحدة القبول بدعم إيران للتمرد، أو تجاهل محاولاتهم لتطوير أسلحة نووية. إذ على الولايات المتّحدة أن تقدر الإعتبارات الجيوسياسية التي تقود، وبشكل رئيس، هذه الأحداث، وعدم ترك عواطفنا تنال من أفضل ما عندنا.

أما مقاربة العصا والجزرة، التي غالباً ما تُذكر، فلها فائدة. لكن، ولأجل خلق حوافز وتوقعات ذات مغزى، فإنّ علينا أولاً أن نشرك إيران وذلك في تواصل صريح ونزيه. فالحوار ليس كلمة قذرة، وكانت الوزيرة رايس قد أشارت الى أنّ الولايات المتّحدة مستعدة للحوار بشكل مباشر مع طهران على مستوى ما. يجب الدفع بهذا الحوار قدماً، والإنكباب بشكل شامل على عدد لا يُحصى من القضايا الحساسة، بما في ذلك موضوع الضمانات الأمنية. وفي حين أنّ الهواجس النووية والإقليمية هي من الأهمية بمكان، فقد حان الوقت الذي على الولايات المتّحدة أن تدرك فيه بأنّ ليس كل وضع يجب تصفير حساباته . فالتلميح بتسويق الخوف بخصوص إتفاقية ميونيخ لم يعد له فائدة– على الولايات المتّحدة البدء بإعادة التأكيد على العودة الى الواقعية قبل أن نجد أنفسنا على حافة صراع أوسع.

نبذة عن المؤلف: *راي كار محلل في دائرة الأمن الداخلي (Department of Homeland Security) الموجودة في واشنطن. لديه ماجستير في العلاقات الدولية من جامعة شياكاغو، وهو مرشح Ph. D في جامعة ميري لاند، يركز على التهديدات الأمنية وديناميكيات حركات التمرد.*